

الرجوع الى ميتوزيلا

لبرنارد شو

في البداية

ميتوزيلا بطريق يقال إنه عمر طويل حتى نيف على التسعمائة بنصف قرن أو يزيد ، فالرجوع إليه هو الرجوع بالإنسان إلى الحياة الطويلة ، والحكمة في ذلك هي ماتدور عليه القصة بماسياعامه القارىء بعد حين ، والمؤلف يرمى إلى تأريخ التطور الخالق creative evolution فبدأ بقصة آدم وحواء واستغل تلك الأمنية الأبدية « حجر الفلاسفة » الذى يغلب الناس على غائلة الموت. والقصة فوق ذلك معرض تمثل فيه نقائص الحياة المتمدينة ، وخاصة الجانب السيامى منها.

نحن فى ناحية من جنة عدن ، يجلس فيها آدم وحواء ، وعلى مقربة منهما تسكن حية مخفية الرأس ، وأيل مكسور الرقبة ، وقد جذب الأيل أنظار آدم وحواء بسكونه المستمر ومنظره المقبض ، مما أثار فى نفس الرجل الخوف أن تزل قدمه مرة فتندك رقبتة وينقطع حبل حياته ، وتحس حواء ببعض مايجد ، ويشفق كل منهما أن يهجره رفيقه تلك الهجرة الأبدية ، ويتركه لوحده ليس فيها أنيس ، ولكن حواء تعجب من خوف آدم هذا لأنه يتردد دائماً بين الضجر من الخلود والخوف من الموت ! ويهم آدم بالأيل ويذهب به بعيداً ليرمى به فى النهر ، وفى أثناء غيابه تتحرك الحية وتتحدث إلى حواء ببلغتها ، لأن طول إصغائها إلى حوارها مع آدم أفضى بها إلى تعلم اللغة التى يتكلمان ، وهى تحدثها لما ترى من شدة خوفها من الموت ، وتكلمها عن دواء الموت وهو الميلاد وبعث الحياة من جديد، وتضرب لها مثلاً بنفسها فهى تلد حيات جدد، وهذا ما فعلته ليليث عند ما آلمتها فكرة الموت فولدت آدم وحواء ! ، والخلق ليس محلاً ، فقط يجب أن ترغب وتخيّل ثم تريد فتخلق ، ولم لا ؟ ألم تكن حواء عاجزة عن تسليق الأشجار ؟ ألم ترغب وتخيّل وتريد فخلقت من العضلات والاستعدادات مامكنها من تسليق الأشجار ؟ هكذا الخلق ممارسة واجتهاد . . . ولا يجوز لحواء أن تردد إذا كانت تريد أن تغلب على الموت ورعبه . وإذا مارجع آدم هرعت إليه حواء وأفضت إليه بكل مادار بينها وبين الحياة ، ويسر الرجل لذلك ، إلا أن خوفاً بداخله أن يقتله من سوف يلد من أحياء ، ولكنه يجد فى

نفسه إطمئناناً غريباً، ويخيل إليه أن صوتاً يوحى إليه بأن لن يصيبه أذى ممن سيلد، ويصرح لحواء بأنه نفس الصرت الذى يبغضه فى فكرة قتلها، وهنا تقول له :

حواء « إن الصوت يهمس لى بقتلك ومع ذلك فلا أرغب أن تموت قبلى ، ولا حاجة لى بصوت يأمرنى بذلك » . فيقول آدم : « كلا... ذلك بين من غير صوت ما، لأن هنالك شيئاً يربطنا ببعضنا . . . شىء ليس له كلمة . . . »

الحية « الحب . . . الحب . . . الحب »

آدم « إنها الكلمة قصيرة لمثل هذا الشىء الطويل ؟ »

الحية « الحب تديكون كلمة طويلة لشيء قصير . . . ولكنه إذا كان قصيراً كان حلواً » .

آدم « إنك تحيرينى، كان اضطرابى القديم ثقيلًا ، ولكنه كان بسيطًا ، وهذه البدائع التى

توعدين قد تلب كيانى قبل أن تمنحنى هدية الموت ، كنت أنوء بحمل المخلوق الخالد، ولكن لم أكن مهتاج العقل، وإذا كنت لم أعلم أنى أحب حواء فلم أكن أعرف كذلك أنها يمكن أن ترهق فى حبي وتحب آدم آخر ، أو أن ترغب فى موتى . . . هل تعرفين اسما لهذه الحالة ؟ » .

الحية « الغيرة . . . الغيرة . . . الغيرة »

آدم « كيف لا أثار على الهم مادام المستقبل أضحى غير مؤكد ؟ إن أى شىء خير من

الشك ، فالحياة أصبحت غير يقينية والحب غير يقينى ، فهل لديك كلمة لهذا الشقاء الجديد ؟ »

الحية « الخوف . . . الخوف . . . الخوف » . فيقول آدم : « هل عندك علاج له ؟ » . فتقول

« نعم . . . الأمل . . . الأمل . . . الأمل » فيسأل « وما الأمل ؟ » ، فتقول : « مادمت لا تعرف المستقبل فإنك لا تعرف أنه لن يكون أسعد من الماضى . . . هذا هو الأمل » .

آدم « إنه لا يعزبنى أن الخوف عندى أقوى من الأمل ، ينبغى أن أظفر باليقين . . هببه

لى أو أقتلك إذا ما ظفرت بك نائمة » فتقول حواء « حيتى الجميلة ! . . كلا ! . . كيف تفكر فى

مثل هذا الأمر المروع ؟ » فتقول الحية (لآدم) : « قيد المستقبل بإرادتك وانذر نذراً » ،

فيسأل آدم « وما النذر ؟ » فتجيب الحية « اختر يوماً لموتك، واعزم أن تموت فى ذلك اليوم،

فلا يبقى الموت غير يقينى ، ودع حواء تنذر أن تحبك حتى تموت فلا يبقى الحب بين مخالب الشك »

آدم « هذا جميل » ، فتستدرك حواء « ولكنه سوف يقضى على الأمل ! » فيقول آدم

(مغضباً) « صه . . يا امرأة . . إن الأمل شرير والسعادة شريرة . . اليقين هو السعادة »

الحية « وما الشرير ؟ » فيجيبها آدم : « كل ما أخاف أن أفعل شريراً ، اصغ إلى يا حواء،

وانصغ أيتها الحية واشهدا نذرى : سأعيش ألف دورة فلسكية .

الحية « ألف سنة ؟ ألف سنة ؟ » ، فيردد آدم « نعم سأعيش ألف ولن سنة أبقى ؛ لذلك ، وسوف

موت وأفوز بالراحة ، ولسوف أحب حواء كل هذا الزمن دون سواها» ، فتقول حواء « وإذا
وفي آدم بنذره فلن أحب رجلاً سواه » .

وتهمف الحية أنهما اخترعا الزواج ، ثم تفتحي بحواء ناحية لتفرضي إليها بسر هذا
الزواج ، وتهمس في أذنها بكلام فيتهلل وجهها فرحاً ، ثم يعترية الامتعاض فتخفيه بين يديها .

تقضت قرون ، وقد هبط آدم من عدن وعاش مع حواء ، وها هو ذا يحفر وهاهي ذى تفزل ،
ولم يظلا كما كانا حافظين لثوب الفتوة جديداً ، وإنما خضعا لسلطان الزمان الذي سلبهما رونق
الشباب ومكن منهما الكبر . ولأول مرة يظهر بجانبهما آدمي جديد هو هاييل ، وهو متلفع
برداء الحرب مزهو بفرور المحاربين ، ولا يكافئنا أى جهد أن نلاحظ ما بين الأب والابن من
سوء تفاهم وغضب ظاهر ؛ وذنب الابن أنه قتل أخاه قاييل ، ولكنه يعتذر عن نفسه بأن أخاه
هو الذي اخترع النار والقتل وأنه قضى عليه بما كان يقضى به على غيره ، وهو على كل حال لا
يبتئس لذلك بل يفخر به ، لأن حياته في نظره أحفل بمعاني العظمة من حياة أبيه . وماذا في حياة
آدم غير الحفر ؟ وهو يستطيع أن يفخر بالحفر إن جاز له أن يفخر بأنه خلق رجلاً ! أما هو
فيستطيع أن يزعم أنه القاتل الأول ، وحياة القاتل حياة قوة وحرية !

ولا يروق حواء حديث ابنها ، وتخشى على آدم أن يتأثر به ، فتتجى على ابنها بالأم أن يفخر
بما لا يستحق الفخر أو الثناء ، وتكر عليه أن يزعم لنفسه ما ليس لها من الحرية والقوة فهو أسير
أمراته ، يساق إلى مقاتلة الحيوان بوحى صامت منها ، لأنه يذوق السعادة في تلك الساعة التي
ترمى بصيده تحت قدميها مزهواً أمامها بقوته وجبروته ، وهو بعد هذا وذلك ليس إلا مخرباً ،
ولو أنه ذاق العذاب مثلها والجهد في سبيل الاتجاع والبناء ما استقام منطقته بمثل هذا التفكير
الطائش . ولكن الفتى لا يهتم لكلام أمه وما يزال يصر على إثبات أسلوب حياته والزراية بحياة
أبيه . فاذا نظر أبوه إلى الأرض وأقر بأنها أصل الحياة تطلع هو إلى السماء وقال إن الأرض
إصل الأمراض كذلك . وتشتد ثورته على الأرض وما فيها من طعام وتناسل ، ويتساءل : إذا كان
هذا هو كل ما للإنسان ، فما الفرق بينه وبين الدب ؟ ويشتد سخط الأب ويتغالى الابن في كبريائه حتى
تهددحاهما بالخطر مما يدعو حواء إلى التدخل فيما بينهما لتهدى من تأثيرهما وتلطف من حرارتهما ،
حتى إذا رأتهما جنحا إلى السكون اعترفت لهما بأنها غير راضية عن حياة آدم ، وغير راضية عن حياة
هاييل ، تلك تضجرتها بما فيها من لون واحد وحركة واحدة ، وهذه تنفرها بما فيها من وحشية وخراب .
وإنما الذي يعزيبها ويهون عليها هو الأمل في المستقبل ، وقد بدأت تتلمس بوادر حسنة تبشر بالسعادة
وهي التي تتحقق على أيدي بعض أبنائها ، فمنهم من يسرح بنظره بين الكواكب يطلق عليها
الاسماء ويلاحظ حركاتها ، ومنهم من صنع لها هذا المغزل العجيب ، ومنهم من يهيم في الغابة صائحاً

إلى « الصوب » يستلمهم أمورا يهذى بها إخوانه ... وهو لا يحلم أملها في المستقبل الذين يبنون ويتكبرون من غير أن تسرحهم السكينة ولا تفرر بهم حمية القتال . والظاهر أن هاييل لا يفهم هذا الكلام فيأخذ عدده ويخرج ، ويستأنف آدم الحفر وتجلس هي تغزل وهي تقول :
« الإنسان لا يحتاج دائماً أن يعيش بالخبز فقط ، يوجد شيء آخر لا ندري إلى الآن ماهو ؛
ولكننا سنكشف عنه في يوم من الأيام ، هنالك لا يبقى محل للحفر أو الغزل أو التراخ أو القتال »

نحن الآن بعد الحرب الكبرى ، في غرفة بيت فرانكلن بارناباس - وهو رجل من رجال الدين سابقاً - وأخيه كوزاد بارناباس وهو عالم بيولوجي ، والأخوان من الرجال الموهوبين الذين يعيشون للإنسانية ، وهما متفقان على أن الحياة البشرية قصيرة بحيث لا تحقق للإنسان ما يطلب من الحكمة والعرفان ؛ ولقد هجر فرانكلن الكنيسة لما رأى أن بينه وبين الحكمة مائة وخمسين عاماً . أما كوزاد فيتمنى لو يعمر تسعمائة وستين عاماً كما يطربق ميتوزيلا ليبلغ مرتبة العلم الحقيقي . وبينما نستمتع لحوارهما يدخل القس هاسلام وتتبعه ابنة خطيبته فرانكلن سافى ، ولا يكاد يستقر بهما المقام حتى يدخل شخص ثالث هو مستيريبرج وهو من الشخصيات السياسية البارزة وحسبك دلالة على سمو قدره أنه ترأس الوزارة البريطانية أثناء الحرب ، وأنه الآن زعيم المعارضة وهو لم يحضر لخالص الزيارة ولكنه يرمى إلى غرض سياسي ؛ ذلك أنه علم أن مستر فرانكلن ينوى القيام برحلة ، فهل تكون الرحلة لغرض سياسي ؟ وإذا كان الأمر كذلك فهل يكون الأستاذ ممن يزكونه أم ممن يناهضونه ؟ لأن الحالة حرجية والشعب غير راض عن الوزارة القائمة التي لا تمثل أحداً فيه ، ولكن فرانكلن لا ينوى القيام بدعاية سياسية مطلقاً وهو لم يفكر في السياسة أبداً ، لأنها - على ما هي عليه - لا تستطيع أن تجذبه إليها ، وهو يصرح لمستيريبرج عن رأيه في أساليبهم وانتخاباتهم التي يراها مهازل مضحكة لا تقضى شيئاً .

وأثناء الحديث تدخل الخادم معلنة قدوم مستر لابن ، وهو رئيس بيرج القديم ورئيس الوزارة قبل الحرب ، وبين الرجلين منافسة حادة وخصومة مكتومة واحتقار متبادل . ويتحدث الجميع في السياسة ، وهل في أدمغة رجال السياسة موضوع عدا السياسة ؟ كأنما الدنيا لم تخلق إلا لتكون ميداناً لانتخاباتهم ، وكأنما الناس لا يوجدون إلا لتركيبتهم وتسليمهم مقاليد الحكم ؛ وأخيراً تضيق سافى بالحديث وتسخط عليه ، وتقرح على أبيها وعمها أن يبلغا السياسيين إنجيلهما الجديد . ويراع الرجلان ظناً منهما أن الشقيقتين ينويان تكوين حزب سياسي جديد يرحم عليهما الميدان ، ولكن كوزاد يؤكد لهما أن فكرة كهذه لا يمكن أن تنال طمها نفساً ، فما عسى أن يكون هذا الإنجيل إذا ؟ هنا يقول فرانكلين « برنامجنا هو أن تمتد نهاية الحياة الإنسانية إلى ثلثمائة عام » ، وتقول سافى : « إن نداءنا في الانتخابات هو الرجوع إلى ميتوزيلا » ، ولكن ما شأن ذلك والسياسة

هنالك يأخذ فرانكلين في شرح كتابه أو إنجيله قائلاً إن رجال السياسة يموتون ولما يبلغوا سن الرشد، يموتون وقبس من النور يوشك أن يشرق على نفوسهم المظلمة، فيجب أن نتقدم بهم الحياة ليمثلوا الحكمة وينفذوا من تجارب القرون ! ولما يسمع مستر لابن هذا الكلام يوافق عليه، ولكنه لا يرى فائدة عملية من الخوض فيه ، فقد نستطيع أن نتمسك الطيور بأيدينا لو تنطبق سما على الأرض ، وبسألان كونراد: هل اعتدى إلى أكسير الحياة ؟ هل يقدم لها طعاماً أو سقيها شراباً ؟ فيأسف العالم لأنه يحدثهما في العلم فيقبلان عليه بأفواه مفتوحة وعيون مغمضة، ولكن لابن لا ينق بالعلم كثيراً ويستشهد بخطأ العلماء المتكررة، وربما كانت ثقته بالشعرا عظم، ويجد من فرانكلين موافقة على كلامه ، ويضرب هذا مثلاً على صدق الشعر بأسطورة عدن، ثم يقول « حسناً أنت تذكر أنه في جنة عدن لم يكن آدم وحواء خاضعين للموت، وأن الموت الطبيعي - كما نسميه الآن - لم يكن جزءاً من الحياة وإنما هو اختراع متأخر عليها ومنفصل تماماً منها » ، ولما يدترس لابن بأن الموت غير الطبيعي كان موجوداً يستطرد فرانكلين قائلاً: « نعم ، كان آثم وحواء معلمين بين قندين مخيفين : انقراض النوع من الموت غير الطبيعي، والأمل في حياة أبدية ، ولما لم يطبقا واحداً منها قررا أن يكتبيا بحياة قصيرة أمدتها ألف عام ومن ثم يمدان بعملها إلى زوج جديد ، فاخترعا الميلاد الطبيعي والموت الطبيعي اللذين هما من الظاهر استمرار الحياة من غير أن يرزح مخلوق تحت وطأة الخلود » .

فالحياة خاتمة ولو في الأفراد ، ونحن صورها المتكررة. وهي تسير في سبيل القوة والعرفان غير المحدودين ، والذين يجب أن يظلا غير محدودين ليسوغا لنا الحياة . وبسأل لابن عن أصل الخطيئة، فيجيبه فرانكلين قائلاً إن آدم كان يعيش في عدن آمناً من الموت فكانت بيته الأبدية، وكان لذلك يوجه جل عنايته إلى المحافظة عليها والاهتمام بشأنها ، فلما اخترع الموت الطبيعي وأضحى مستأجراً للبيت لا صاحبه ففرت عنايته به ، وتجراً على ضرب حواء بعد أن كان يشفق أن يصيبها بسوء فيبتي وحيداً لا أنيس له، ولما جاء أبناءه ساروا على سنته وزادوا عليها ، فكان القتل وكان الصراع وكان الشقاء ... هذه هي قصة عدن ولك أن تسميها التطور الخالي إن كنت من المغرمين بالأسماء العلمية ؛ وليس التطور ظاهرة عارضة مخطئة قوة ، نحن تجربة في يدها. فإن بشرنا بنجاح أبقتنا ، وإن رأنا أننا تجربة فاشلة قضت علينا وابتدعت غيرها .. وكمن مخلوقات اقرضت ولم تترك إلا آثارها على الأحجار القديمة .

كل هذا طيب ولكن كيف السبيل إلى العيش ثلثمائة عام ؟ هل هنالك أكسير أو نحوه ؟ الحق انه لا يوجد أكسير ولا غيره ، وكل مافي الأمر - كما يقول فرانكلين - أننا نستطيع أن نبت في عقول الناس أنه لا يوجد شيء يمنع من ذلك - طول العمر - إلا إرادتهم أن يموتوا قبل أن يشارف عملهم النمام، وإلا جهلهم بالعمل العظيم المتروك لهم أمر القيام به .

ونجيب أمل لابن ويرج، لأن عقليتها لا تقتنع إلا بالأمور المادية، أما الرغبة والافتناع النفسى فأمر آخر ! أليس كلنا نرغب أن نعمل ثمانمائة عام ومع ذلك لا يتاح لنا أن نتجاوز العمر المحدود ؟ ولكن كوزاد لا يرى ذلك وهو يقول مدللاً « كل يود لو يحصل على مليون جنبيه فلماذا لا يحصل عليها ؟ لأن الذى يتمنى أن يكون مليونيراً لا يحصر على توفير ستة بنسات ولو هددته الموت جوعاً وانتصب محملاً في وجهه ، والذين يرغبون أن يخلدوا لا يحاولون أن يخلدوا عن شرب البيرة أو تدخين التبغ، وهم يعتقدون أن الممتنع عن المسكرات والتدخين يعيش أجلاً أطول، مثل هذه الرغبة لتجاوز عتبة الإرادة، انظر إليهم كما يعتقدون أنه يجب عليهم أن يفعلوا . لكن لابن عسير عليه أن يفهم هذا الكلام، وهو يأس من أن يطول عمره، ويرج يعد بأن يجعل من هذه المسألة أساساً لمعركة انتحائية ، وهاسلام لا يصدق شيئاً من هذا، حتى خطيبته ساق تشك فيه شكاً قوياً لما ترى أنه من المحتمل أن تعمّر الخادم وترجع إلى ميتوزيلا . أما الشقيقان فلا يخالطها شك في الموضوع. لكن هل يعمّر أحد منهما أم لا ؟ هذا مالا يعلمه أحد.

نحن في عام ٢١٦٠م في إنجلترا أيضاً وفي خرفة رئيس الوزارة وهو يجتمع في هيئته ما بين مستر بيرج ومستر لابن ، ونحن نحس تقدماً في الحضارة الميكانيكية : فالوزير يتحدث إلى وزيرة الصحة بالتليفون وهي على بعد أميال عديدة، ويستطيع أن يراها ويرى المسكن الذى نحل فيه كتابها على بعد أشبار منه ، وبأخذنا عجب شديد أن نرى أزمة المصالح الحكومية في أيدي الأجانب ؛ فوزيرة الصحة زنجية من إفريقية، ورئيس السكرتيرين الدائم من الصين « كوتوشيموس » ، وسبب ذلك كما يقول كوتوشيموس - أن الإنجليز بعد حرب طاحنة اقنعوا بأنهم ليسوا أهلاً لحكم أنفسهم فساموا أمورهم للقرباء وانتظمت بذلك آلة الحكومة وتفرغت للتفكير في السياسة العليا.

يدخل على الرئيس موظف إنجليزى كبير الشبه بكونزاد بارناباس ، يبدو عليه الاضطراب وتصدر عنه حركات عنيفة ، وكان الرئيس قد أرسله بدلاً منه ليقابل مخترعاً أمريكياً اخترع آلة للتنفس تحت الماء ، ورأت الحكومة أن تعرض على الأمريكى شريطاً سينمائياً يمثل العطاء الذين ماتوا غرقاً . وشاهد بارناباس من هؤلاء العطاء المنكوبين : الأسقف سميكتيت والوزير ديكنسن والجنرال باليوى، وتحقق منهم بعين فاحصة؛ ولشد ما كانت دهشته عظيمة عند ما تبين له أن هؤلاء الأشخاص ورئيس أساقفة يورك الحالى شخص واحد بعينه ، نعم ليس الذى بينهم مشابة قوية، وإنما هى ذاتية واحدة ، ويدعش الحديث الموظف رئيس الوزراء ورئيس السكرتيرين وتزيد دهشتهم عند ما يدخل عليهم رئيس أساقفة يورك . وهو كبير الشبه جداً بالقس هاسلام خطيب ساقى الذى عرفناه من قرنين، ولا يستقر به المقام حتى يحمل عليه بارناباس متهما إياه بالسرقة ، لأنه ما زال يتقبض من مال الدولة من بعد فوات السن القانونية للعمل ، وهو حوالى الأربعين ، ويرى الأسقف نفسه مطالباً بتبديد الغيوم التى تكتنف الأمر، فيقص عليهم قصة

يدعى بطولتها فتكاد تصعقهم من شدة ماتدهشهم... يقول إنه تزوج في عام ١٩٢٤ من ابنة فركليين الذي ينحدر بارناباس الحالى من أسرته ، وإنه قرأ كتاباً لعم زوجها يبشر فيه للإنسان بحياة طولها ثلثمائة عام ، لأن حياته الطبيعية لا تؤهله للقيام بواجبه نحو المدينة ، وإنه لم يستطع أن يصدق هذه الدعوى الخارقة ، وعاش مع زوجته وتقضت الأيام سراعاً ووضح فعلها على وجه زوجها التى مضى من عمرها جفرة وضحا وطلع أصيله ، وهو باقى على حال شبابه حتى لاحظت عليه ذلك امرأته وضاحكتها قائلة إنه سيعمر ثلثمائة عام ، ومضت الأيام وماتت زوجته ولم يتغير منه شيء ، فوقه في نفسه أنه سيعمر حقاً ، وكان كلما عاش يوماً وعرفت له شخصية تخلص منها وتخلص شخصية جديدة ، وكانت السبيل إلى ذلك أن يذهب إلى شاطئ البحر ويترك ملابسه ويرحل إلى بلد شاحط فيظن الناس أنه غرق ، وبهذه الطريقة كان أسقفاً مرات ، وتقلد منصب الرئاسة مرة وترأس الجيش مرة ، وهو الآن بالبلغ من العمر قرنين ونصف قرن !! فإذا انتهى هاسلام من حكايته ، استسلم كل من الحاضرين لعواطف شتى فيبارناباس لا يصدق ، ويرج لابن يشك شكاً قوياً ، وكونفوشيوس يفكر ويفكر لعله يبتدى إلى نور اليقين وسط هذا الظلام الحالك . وبيناهم على تلك الحال من التكذيب والشك تدخل وزيرة لمقابلة رئيس الوزراء في أمر من أمور الدولة ، وهى امرأة مهيبة - رغم حداثة تكسوها - ولا تكاد تلتقي عينها بعيني الأسقف هاسلام حتى تعترها دهشة وتعتره دهشة مثلها ، ويصرح لها بأنه يتذكر أنه رآها في مكان وزمان تأبى الذاكرة أن تدله عليهما ، وكل ما يذكره أنها كانت تفتح له باباً وتحنى له ، وتعجب الوزيرة لأنها هى الأخرى يحيل إليها أنها كانت تستقبله حقاً وتفتح له باباً كذلك ، ولكن أين ومتى ؟ . ويسأل كونفوشيوس الأسقف : هل يعرف أحداً غيره امتد به العمر إلى هذا الحد ؟ ولكن الآخر لا يدري من هذا الأمر شيئاً ، وقد أخفاه عن العالمين لعلمه أن الناس كالحیوانات يؤذون من ليس على شاكلتهم ؛ وهنا تتذكر الوزيرة الأسقف وتعرف له بأنها خادم خطيبته ساقى التى كانت تستقبله فى بيت بارناباس عام ١٩٢٤ ! ، وتقص عليه كيف أنها قرأت كتاب بارناباس وكيف تأثرت به تأثراً لا يتاح إلا للجاهلات ؛ وقد تزوجت ولاقت حياة عسيرة شاقة لم تذق فيها حلاوة الحياة ولا الراحة ثم مات زوجها ؛ وبدهشها أن تبقى بعده - وبعد فوات تلك الأعوام - محافظة على شبابها وميعة صباها ؛ ثم وقعت على ما عتلك من أنها ستعمر كما قرأت فى كتاب بارناباس ، وقد راعها الأمر لأنها لم تحتمل الحياة وهى قصيرة ، فكيف تصير عليها ثلثمائة عام ؟ ولكن عزاها وشدت عزمها تقدم مطرد سائر الحياة السياسية والاجتماعية مما جعلها تحيا لنفسها حتى تبوأ مقعداً فى الوزارة ! .

ويبقى بيرج لابن عليها نظرات قلقة ، وقد أذهلته الحقيقة ويتجراً فيسألها : لم لا تزوج ؟ وتجيبه بأنها تزوجت من زمن فناناً فى الثمانين وعاشرتة زمناً ؛ ومات الرجل ولما يبدع إبداعاً حقاً ، مات فى اللحظة التى تفتحت له فيها أبواب السماء ! فيسألها ثانياً : لم لا تزوج مرة أخرى

وهي في هذه السن ؟ ألا إنها لا ترضى أن تمثت بطفولة واحد مثله في الثمانين ، وهل تراه يرضى وهو في هذه السن أن يتزوج من فتاة في الثانية عشرة ؟ وبدور بين الأسقف والوزير حديث رائع عن الحياة الانجليزية يتناولانها فيه بالنقد المر ، فالانجليز يجزعون أمام الأعمال الهامة ويتركونها للزوجة والصينيين ، ولعل لا يكون بعيداً أن يأتي يوم يصبح الانجليز فيه خدماً في بلادهم ! وبلا حظان أن العقول الصفراء والسوداء والسمراء هي التي تبتدع الآن وتبتكر كما كانت تفعل قديماً العقول الاسكوتلاندية والألمانية واليهودية والاطالية ، وحسب الانجليز الآن أن يلعبوا الجولف وغيره من الألعاب الصيبانية ؛ وطبيعى أن ينجذب كل من الأسقف والوزير إلى بعضهما ، ويهمان بالخروج وفي نية كل منهما أن يتزوج من صاحبه ، ويحدث بارناباس هذه النية فيعتزضهما ، ولكنهما يخرجان رغماً منه ؛ ويقترح هو أن يقتلا ولو دعا الأمر إلى سن تشريع تحرم فيه الحياة على المعمرين ... أليس من الممكن أن يلدأ أطفالاً مثلها وأن ينتشر هذا النسل فيضجون هم أطعلاً بجانبهم ؟ أليس من المحتمل أن تمتد فامانهم بحيث تناسب أعمارهم فيمسون بجانبهم أقزاماً ؟

ويستمع كوفوشوس إلى حديث بارناباس ولكنه لا يقتنع به ولا يرى فيه وجهاً للحق ، فيحتد بارناباس ويخرج غاضباً ، ويقبل الصيني على رئيس الوزراء محدثاً قائلاً : إن الانجليز يستطيعون أن يبلغوا الحكمة لو بلغوا سن الرشد ولا سبيل إلى ذلك ماداموا يموتون أطفالاً ، ويسخر من ادعائهم أنهم وجدوا ليكونوا السادة ، وليسيطروا على قيادة الشعوب ، ويشبهه بادعاء الطفل الغرير وتبته على اللعبة الخشبية التي يعبت بها ، ويتساءل الرجل : هل يوجد ياترى أناس آخرون على شاكاة الأسقف والوزير ؟ من يدرى ؟ بل من يدرى أنهم ليسا من هؤلاء المعمرين ؟ وبينهما يتحدثان تدعو وزيرة الصحة الزنجية رئيس الوزراء لتزهاه يهبط فيها بالباراشوت في خليج فنشجورد ، فيتردد على غير عادته إذا دعت هذه المرأة . كانت الحياة قصيرة زائلة وكان يستعين بها ، ولا يعدل بساعة متعة شيئاً في الوجود ؛ ولكنه قد يعمر مع المعمرين وقد تطول حياته فكيف يجازف بكثرة ثمين ؟ وهب أنه نجا من الباراشوت ؛ أفليس محتملاً أن يصيبه روماتزم من برودة البحر ؟ وكيف يحتمل الروماتزم ثلاثئة عام ؟ كلا .. كلا .. خير من كل هذا أن يرفض الدعوة ، وقد كان واستهان هذه المرة بفض المرأة الزنجية ؛ ويسر كوفوشوس لهذه النهاية أن تغلبت فيه روح الحكمة على غريزة اللهو والرياضة وأن أصبح جباناً حساساً حكماً !!! ولا يحفل بيرج لابن بهذه الأوصاف ، فليكن جباناً أو غير جبان ، أمر واحد يهمه ويكثر له وهو السلام مادام من الجائر أن يعيش ثلاثئة عام !